البابا إسكندر السادس

أنتخب (رودريجو بورچيا) بابا عام ١٤٩٢ ، واختار اسم اسكندر السادس ، وانطلقت الأفراح فى روما ، ونشرت من النوافذ وفوق الأعلام صورة الثور طغراء « أسرة بورچيا . وهتف الجماهير بما يذكرنا بأسلافنا فى مصر القديمة حين كانوا يعثرون على العجل أبيس بصفاته ولون جبهته وهتفت الجماهير « إيجيابورچيا ، يحيا الكسندر » .

كان أهل روما لا يعرفون شيئًا عن البابا الجديد ، ولو عرفوا المصائب التى تنتظرهم من هذا البابا الذى يستحق اللعنات على مدى الزمان لاتخذوا الحيطة منه . ولكنهم لم يعرفوا عنه إلا أنه رجل ممتاز بكياسته وطلعته ، ولطف وسامته ، وعظمة محضره . وهو إلى كل هذا خطيب رائع ، وإنسان حبوب ، لامع فى حشود الاحتفالات دينية أو مدنية ، وصفه رجل هيومانى وقد رآه فى موكبه المتجه إلى قصر اللاتران ، ممتطيًا جوادًا أبيض ، فأهلَّ على الناس بجبهته العريضة وجلال محياه ، يبارك الجماهير يمنة ويسرة . تحوطه الجلالة مع حلو الملفظ ، معسول اللسان ، جذاب للنساء بطلعته .

ولقد أثبت وهو كاردينال أنه رجل قدير ، لم يبد عليه أو منه علامة قسوة ، أو خداع : فإذا كان زير نساء فأمر ذلك شائع بين بابوات ذلك العصر ، أخلف عددا من البنين والبنات ، وكل هذه الصفات الظاهرة فيها روح العصر العجيب ، ضرى عليها الشعب ، لأن رأس الكنيسة الكاثوليكية ، عاهل دنيوى تعنو له رءوس الملوك والأباطرة . قليل من الكبراء عرف بعض دخائله . قال ملك نابولى لقرينته ، وهو يكتم أساه : لقد جاءنا بابا مفسدة أى مفسدة ! سوف يعم ضرره على مجموع الكاثوليكية ، هذا إلى أنه أسبانى « مارانى » (بمعنى أنه من أصل مغربى متنصر) ولعل ما طَفَا على وجه ذنوبه أنه عين منذ انتخابه ثمانية عشر كاردينالا ، كُلّهم أسبان ، وبينهم خمسة من أسرته .

وبغير دخول فى تفاصيل انتخابه ، تكفى الإشارة إلى أن « المجمع المقدس » . وهو مجموع الكاردينالات بمثابة أمراء الكنيسة ، صرفوا كلهم ، فيما عدا رودريجو بورجيا ، من حر أموالهم فى انتخابات البابا السابق على الكسندر ، ثمنًا لغطاء الرأس الكردينالى ، « حلوانًا » للبابا المتوفى ، فى مقابل نوالهم رتبة الإمارة الإكليروسية ، أى الكاردنالية . وفرصتهم فى استرداد ما صرفوه تهيأت فى انتخاب البابا الجديد ، وقد تم لهم ذلك ، فالمرشح مضمون ماليًا أن يجرى عليهم عطاء ، وكل منهم طامع فى وظيفة تجرى عليهم المال جزافًا . ورودريجو بورجيا ، إسكندر السادس أكثر المرشحين ثراءً ، وأقواهم شخصية ، وأذكاهم ، وأكبر رجل دنيا بينهم . وكان بورجيا عليمًا

بأطماعهم ، فاستعد لها بحساب دقيق : أحدهم يطمع فى أن يعين مستشارًا مقربًا ، والثانى سدد بصره وبصيرته إلى الانتفاع بقصور البورجيا فى روما – فالبابا يعيش فى القصر الرسمى حتى وفاته . والثالث أن يتولى ديرًا كبيرًا بأبراجه العالية ، والكاردينال الرابع يطمع فى أن يعيش رئيسًا لأساقفة بورتو ، حتى يسكن قصرها المنتفع بأعلى الأبنية . أما الأقل أهمية فى أعضاء المجمع . فقد أوفد إليهم صاحبًا ليتولى أمر أربعة بغال مثقلة بالذهب الرنان يوزعه عليهم حسب اجتهادهم فى الانتخاب .

وتخلف خمس كاردينالات عن المشاركة فى الانتخاب ، وعلى رأسهم عدو لدود لبورجيا .

إن سمعة الكسندر السادس – بعد أن عرفت رذائله وجرائمه – أثارت الكُره ، وأضيف إليه التخوف من ابنه العاتى تشيزارى بورجيا ، وكان أسوأ من أبيه . ويمكن تصور الإجماع على لعن الأب بعد وفاته .

ومع كل هذا ، قال المؤرخ الفلورنسى الكبير جيتشارديني : «مات البابا الكسندر وهو فى أعلى مراقى المجد والثراء . ويقتضى الحق أن نقول بأنه كان رجلا كبير العقل ، صادق الحكم والتقدير» .

ويقتضينى الحق أن أتم كلام المؤرخ الشهير : «ولكن هذه الصفات الطيبة ، فاقتها سوآته ، فحياته الخاصة كانت فى حضيض الفحش والفجور ، بلا خجل ولا إحساس بالحقائق ، ولانفاذ عنده

لوعود وعد بها ، ولا اعتبار عند رأس الكنيسة الكاثوليكية بمعنى الدين ، طباع مفتوح الشهية لكل اغتصاب على قسوة ووحشية بدائية . كتب سفير البندقية : « كل ليلة كان يعثر فى روما على أربعة إلى خمسة قتلى من الإكليروس وغيرهم » . وبينما كان البابوات يخطبون الناس لحرب صليبية ضد العثمانيين ، كان إسكندر السادس يَحُضّ السلطان بايزيد على غزو أوربا ليخلصه من الأمراء الذين يقاومون مؤامراته فى صالح أولاده . والشعور الأخوى القائم بين البابا والسلطان العثمانى . كان يتعلق بالاتجار بالأمير العثمانى « جِمْ » وهو أخٌ لبايزيد ، وابن محمد الفاتح ، مما دفع الشاب المسكين على الهَرب إلى بلاد النصارى ، فاعتقله إسكندر مقابل أربعين ألف دوقية يدفعها الباب العالى مقابل هذا الاعتقال ، وهذا غير ماكان يغدق به السلطان على البابا إنوّشنتى من هدايا ، مثل الحربة التى قتل بها الرومان الملكة الزباء (زنوبيا) . فأخذها إنوشنتى وأقام حولها مقصورة تعنى التقديس ، بل أمر أن يقوم رمسه على مقربة من ذلك الأثر . وبقى الأمير « جِمْ » فى روما ، وكان يعيش حياته الإسلامية داخل الڤاتيكان ، وله بلاطه الخاص .

وهناك رسائل بالمحفوظات يتبادل فيها السلطان بايزيد والبابا إسكندر السادس توكيد الصداقة الحميمة بينهما . وفيها كان عظمة السلطان يرجو صديقه البابا أن ينهى حياة الأمير البائس ، ويعده بدفع ثلاثمائة ألف دوقية فى مقابل هذا الخلاص ، ويضيف إليها الرداء الذى كان على السيد المسيح ، وكان الحرس الرومانى يلعب

أفراده بالنزد ليكون الرداء من حق الكاسب . ووصلت الأموال والرداء إلى أعداء البابا . وكان البابا قد عقد حول الأمير العثمانى صفقة بتسليمه إلى ملك فرنسا « شارل السابع » فى معسكر جيشه بين روما ونابولى .

كان البابا الكسندر السادس أسير عشيقتين : ڤانوتزا ، وهى عقيلة زوج أول ، ثم ثان . و « لابلاّ » وكانت زوجة أوسيوأورسينى . وأمر هذه السيطرة النسائية كان معروفًا . وقد قبلت العشيقتان أن تعيشا حياة أشبه بالحريم السلطانى ؟ ! وكانت معهما وصيفة شرف : هى السيدة أوريانا دى ميلا .

فهم هذا الوضع العجيب لرأس الكثلكة يقوم على أساس أن نظرته ونظرة الشعب إليه تتغلب فيها الملوكية العلمانية على البابوية الروحية . وهذا يعطى صورة من سوءات المجتمع الإيطالى ، وخاصة فى القرن السادس عشر . وقد أقام ابنه الأكبر الحرام – من العشيقة ڤانوتزا دوقا لجانديا ، وابنها الأصغر زوجه بالأميرة ابنة ملك أراجون (الأسبانى مثله) هذا وكان البابا إنوّشنتى – خلف أسوار الفاتيكان – يتصيد من وقت لآخر المجرمين القادرين على تقديم « المعلوم » . وكان ابنه يتأهب لِلَهْف المال من خزائن الكنيسة ، فى حالة وفاة أبيه . وقد أشيع ذات مرة موت إنوّشنتى ، فحاول ابنه تنفيذ غرضه ، ولكنّ المحيطين بالبابا لم يُمكِّنوه . فحاول خطف الأمير العثمانى « چم » ، فهو رأس مال طيب ، إذا بيع لواحد من الأمراء القادرين على الدفع . وجاء بعد إنوّشنتى ، البابا إسكندر (١٤٩٢ – ١٥٠٣)

فعنى فى أول اهتمامه بصون الأمن . ودفع مرتبات المستخدمين كاملة . وما كان أكثر قصص البورجيا مَحْلِيًّا بتحقيق أول هدف له ، ولابنه تشيزارى بورجيا ، هو إخضاع كل الحكومات لتابعة للكنيسة ، أى لسلطان البابا ، وكان يحكمها أمراء صغار ، وكلهم تابعون كإقطاع للبابوية . ثم تخلص البابا من زمرة أسرتى أورسينى وكولونّا . ولم تتوقف فصول هذا الخلاص إلا بموت البابا مسمومًا . ولم يكن إسكندريهتم بالرأى الخارجى ، فى غرب أوربا ، كل ما يهمه هو إثارة الرهبة والفزع حوله ، حتى يفرض أمره على سكان المناطق القريبة وكان قديرًا على كسب بعض الأمراء الأجانب ، حتى إنّ الملك الفرنسى لويس الثانى عشر كان يساند إسكندر بورجيا بشدة . أما سكان فلورنسا فلم يكونوا على علم بماجريات الأمور وسط إيطاليا . إنما فى ظرف صعب واحد كان متوقعًا بسبب حملة الملك شارل الثامن على إيطاليا ، مارا بروما ، فلم يحدث شىء مما سمع بأنه سوف يطالب بعقد اجتماع كنسى لكى يقرر شيئًا يختص بإمكان تغيير البابا ، ونقله إلى فرنسا .

ويبدو لى أن الناحية الإدارية ، وقوة العزيمة ، مع الجاذبية العجيبة فى شخصية إسكندر السادس ، إنْ كانت لا تعفيه من انسياق إلى شهواته ، ومن جرائمه وحرصه على جمع المال بكل الوسائل الشريفة وغير الشريفة ، فهى تؤكد أنه كان من أقدر الناس على الإدارة والشئون الاقتصادية نتيجة خبرات شبابه فى الوظائف التى تقلدها .

كان مركز الضعف فى هذه الشخصية العجيبة هو حبه لابنه تشيزارى بورجيا ، وهذا الابن الملعون استولى على أبيه ، وأفقده إرادته . وبذلك كانت أعمال الكرسى الرسولى مرسومة بهذه الانحيازية .

الحديث عن مصائب عصر إسكندر السادس طويل ، ولا أذكره إلا إضافة إلى شخصية ابنه المجرم الزنديق ، وحتى اهتمامى بهذه الناحية السلبية فى عصر الرينسانس مَرْجِعُهُ عندى هو الكاتب والمؤلف والسياسى والدبلوماسى الأكبر فى عصره ، ماكيافيلّى . فقد طالعت أكثر من دفاع عن كتابه « الأمير » فلم أقتنع . نعم كان تشيزارى أميرًا ناجحًا ، بسبب ذكائه ، وحسن استعداده لما يؤديه . ولكن أن يدافع عنه إنسان طيب ، ورجل خبير ، وذو قلم أنيق ، بحجة أن تشيزارى أمثولة فى إتقان مهنة الأمير الحاكم ، لا علاقة لها بهذا الإنسان المخيف الذى جعل مكان اسم بورجيا فى قائمة شياطين البشر . ولم أُدْخِلْ فى الموضوع شقيقته لوكريسيا ، ، فقد كانت امرأة ساحرة ، جميلة ، تزوجت أكثر من مرة . وفرض عليها الطلاق أبوها البابا ، لأنه جعل منها تجارة نفوذ ، فطلقها من زوج طيب ، عندما وجد فرصة لابنته الحسناء ، المغرمة بمجتمعات الأدباء والشعراء والموسيقيين ، لكى تصبح بعدها أميرة « فيرارا » . ويبدو أن شخصيتها التى استخدمت فى المسرح والأدب القصصى إبّان العصر الرومانتيكى صورة بشعة ، مشكوك فى صدقها .

ولننتقل الآن إلى صورة أقرب إلى مكارم الأخلاق ، والحرص

على الإصلاح الدينى ، على يد سافونارولا ؛ فإن هذا الراهب العجيب ، وسأصفه دائما بالرهيب ، كان الثائر الأكبر على فساد رجال الدين من أعلى مراتبهم إلى أضألها ، ولكن الطبيعة لم تهبه القدرة على ثورة انتهت بإعدامه شنقًا ، وإحراق جثته علنًا فى الميدان الكبير بمدينة فلورنسا . وفى رأيى أن مثل هذه الشخصية لا تظهر إلا فى عصور التحولات الكبرى فى المجتمع ، سواء فى الممارسة الدينية ، أو فى النظم السياسية .